(شيخ الإسلام ابن تيمية)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيّدنا محمَّداً عبدُه ورسوله، وصفيه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدِّين كلِّه ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللَّهم صلِّ على سيّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد:

عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله العظيم، وأحثكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

يقول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:90].

وقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:111].

أيها الإخوة:

أخبارُ العلماء العاملين، والحكماء الصالحين، والمجاهدين المتقين تغرسُ الفضائلَ في النفوس، وتدفعها إلى تحمُّل الشدائد والمكارِه في سبيل الغايات النبيلة والمقاصد الجليلة، وترفعها فوق شهوات الماء والطين لتصل بها عليين.

ومن هنا قال بعض العلماء: الحكاياتُ جندٌ من جنود الله تعالى، يثبّت بها قلوب أوليائه.

نحن في الخطبة الرابعة عشرة من سلسلة (أعلام من الشام) التي أحدّثكم في كل خطبةٍ منها عن واحدٍ من أعلام هذا البلد التقيّ المرابط المبارك الكريم الصابر، عن علَم وُلِدَ هنا، أو مرَّ من هنا فعاش حقبةً من الزمن، أو توفاه الله في هذه البلدة.

والأعلام المختارون من بعد عصر الصحابة وحتى نهاية القرن الثالث عشر للهجرة.

كنت قد تحدثتُ إليكم عن السلطانين نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي، وعن الإمامين الأوزاعي وابن كثير، وعن الحافظين الذهبي والمزّي، وعن شيخَي الإسلام النووي وموفق الدين بن قدامة المقدسي، وعن السيدة ستِّ الشام، وعن مؤرّخِ دمشقَ ابنِ عساكر، وعن سلطانِ العلماء العزِّ بن عبد السلام، وعن الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز في خطبتين، وحديث اليوم عن:

(شَيْخ الإِسلاَم أحمد بن تيميّة)

هو أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيميّة الحرَّاني ثم الدمشقي، وُلِد بحران جنوب شرق تركيا قرب الحدود السورية، ثم انتقل منها مع أسرته إلى دمشق وله من العمر سبع سنوات، عُرِفَت أسرتُه بالعلم والدين، واشتغل رجالها العلماء بالتدريس والإفتاء والتأليف، وهذا من محاسن القدر أن يَنشَأ امرؤ في بيت علماء أتقياء، فمَن وهَبَه الله هذه النعمة فليَرعَها ليكون امتداداً لآبائه كما كان ابن تيميّة، بل إن الإمام الذهبي قال في ترجمة ابن تيميّة: (خفي اسم أبيه لأنه وقع بين نور القمر وضوء الشمس)، يشير بنور القمر إلى جده أبي البركات، وبضوء الشمس إلى شيخ الإسلام أحمد بن تيميّة، فالولد فاق سابقيه علماً وديانة.

وإني وجدتُ الشيخ أحمد بن تيميّة متَّصِفاً بأربعةٍ كانت سببَ رِفعَتِه وعلوّ شأنه، هي عينُها التي وَصَفتُ لكم في ابن قدامة المقدسي -رحمه الله- وغيرهما من الأعلام، وهي التي ترفع مَن أراد الرِّفعة والسَّناء في الأرض والسماء: (العلم، والعبادة، والخُلُق الحسن، والجهاد في سبيل الله)، وهذه الأربعة هي مادة خطبة اليوم.

- **أما العلم**: فقد أفاد ابنُ تيمية من بيئته التي نشأ بها فتتَلمذ على أبيه وأفاد من مؤلَّفات جدّه، وكان موهوباً بقوة الذاكرة فحَفِظ القرآن صغيراً، وشُغِف به وبتفسيره.

يقول -رحمه الله-: (ربما طالعت على الآية الواحدة مائة تفسير ثم أسأل الله الفهم، وأقول: (يا معلم آدم وإبراهيم علّمني، وكنتُ أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوِها وأمرّغ وجهي في التراب وأسأل الله وأقول: يا معلم إبراهيم فهمني).

وحَفِظَ الشيخ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بدءاً من البخاري ومسلم، مروراً بسائر كتب الأصول، وانتهاءاً بالأجزاء الحديثية، يحفظها سنداً ومتناً مع معرفة بالرجال

والطبقات، حتى قال فيه الإمام الذهبي: (يَصدُق عليه أن يُقال: "كلُّ حديثٍ لا يَعرِفه ابنُ تيميّة فليس بحديث")، ومراده: أنه لم يَكَدْ يَفُتْه من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء.

واهتمَّ ابن تيميّة بدراسة العربية وعِلم الكلام والحساب والأصول، وكان شديد الحرص على أوقاته؛ يضنّ بأنفاسه ولحظاته، وما زال في انتفاع وارتفاع حتى صار شيخَ الإسلام، فتصدَّر للفتيا والتدريس وهو في الثانية والعشرين من عمره، وجلس مدرِّساً مكان أبيه بعد وفاته في المسجد الأموي بدمشق، وكما كان الشيخ متفانياً في التحصيل صار متفانياً في التعليم والإفتاء والتدريس والتأليف، مع صبر وحلم وأناة، فحيثما حلَّ أو ارتحل علّم الخَلق وأفادَهم أو خلا للتأليف والتصنيف.

وحَدَثَ أن سُجِنَ الشيخ فعمِل في الدعوة إلى الله والتعليم في الحبس، قال عَلَم الدين البرزالي: (ولما دَخل الحبس وجَد المحابيس مشغولين بأنواع من اللعب يلتهون بها عما هم فيه كالشطرنج والنرد، مع تضييع الصلوات، فعلَّمهم ما يحتاجون إليه، ورغَّبهم في أعمال الخير وحضَّهم على ذلك، حتى صار الحبس بالاشتغال بالعلم والدين خيراً من كثير من الزوايا والربط والخوانق والمدارس، وصار خَلقٌ من المحابيس إذا أُطلِقوا يختارون الإقامة عنده).

وهكذا كان الشيخ معلّماً فذّاً حيثما نزل، بل إنه خلَّف ثروة علمية في كُتُبه التي عُدَّت مجلداتها بالمئات.

- هذا عن العلم، **أما عبادته** فقد قال الذهبي -رحمه الله- عنه: (لم أرَ مثلَه في ابتهاله واستغاثته وكثرة توجُّهه إلى الله)، وذكروا أنه يكون في ليله متفرّداً عن الناس كلِّهم، خالياً بربه عز وجل، ضارعاً، مواظباً على تلاوة القرآن العظيم، مكرّراً لأنواع التعبُّدات، وكان إذا ذَهَب الليل وحضَر مع الناس بدأ بصلاة الفجر يأتي بسنّتها قبل إتيانه إليهم، وكان إذا أحرمَ بالصلاة يكاد يخلع القلوب لهيبة إتيانه بتكبيرة الإحرام، فإذا دَخَلَ في الصلاة ترتعد أعضاؤه حتى يميد يمنَةً ويَسرَة.

وكان غالب دعائه: (اللهم انصرنا ولا تنصر علينا، وأمكر لنا ولا تمكر علينا، وأهدنا ويسّر الهدى لنا، اللهم اجعلنا لك شاكرين، لك ذاكرين، إليك راغبين، لك مُخبِتين، إليك راهبين، لك مطاويع، ربنا تقبَّل توباتنا، وأغسل حوباتنا، وثبِّت حُجَجَنا، واهْدِ قلوبَنا، واسلل سخيمة صدورنا)، يفتتحه ويختمه بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم.

ثم يشرَع في الذِّكر، قال ابن القيم: (كان إذا صلى الفجر يجلس في مكانه يذكر الله حتى يتعالى النهار جداً؛ يقول: هذه غدوتي، لو لم أتغَدَّ هذه الغدوة سَقَطَت قواي).

أيها الإخوة:

هذه العبادة أورثَت الشيخ سكينة وطمأنينة ونعيماً روحيّاً فضلاً عن الأخلاق العالية، قال مرة: (إن في الدنيا جنّة مَن لم يدخلها لم يدخل جنّة الآخرة)، وقال: (ما يفعَل أعدائي بي، إنَّ جنتي وبستاني في صدري، إن رُحتُ فهي معي لا تفارقني).

- أما **أخلاق الشيخ**: فقد ذكروا في تواضعه وسخائه وإيثاره وصَفحِه وحِلمِه وبرّه بوالديه الكثير، وسأكتفي بذِكرِ ما كتبه إثرَ خروجه من السجن عافياً عن كل من أساؤوا إليه من المسلمين، يقول: (تعلمون -رضي الله عنكم- أني لا أحب أن يؤذَى أحدٌ من عموم المسلمين -فضلاً عن أصحابنا- بشيء أصلاً، لا ظاهراً ولا باطناً...، ولا يخلو الرجل أن يكون مجتهداً أو مخطئاً أو مذنباً، فالأوَّل مأجور مشكور، والثاني مع أجره على الاجتهاد معفوٌّ عنه، والثالث فالله يغفر لنا وله ولسائر المؤمنين.

لا أُحب أن يُنتَصر من أحد بسبب كذبه عليَّ أو ظُلمِه أو عدوانه، فإني قد أحللت كلَّ مسلم، وأنا أحبّ الخير لكل المسلمين، وأريد لكل مؤمن من الخير ما أريده لنفسي، والذين كذبوا وظلموا في حلٍّ من جهتي).

- أما الرابعة الأخيرة، وهي: **جهاد الشيخ في سبيل الله** ضد التتر: فقد ذكر ابن كثير في أحداث سنة سبعمائة للهجرة وقَبلَها بعام وبعدَها بعام كيف عاثَ التتار فساداً في الشام، وما تركوا شيئاً إلا غيَّروه بالسلب والنهب، وسجنوا أعداداً كبيرة من المسلمين رجالاً ونساءاً، واستباحوا حرُمات المسلمين بوجهٍ عامّ، ونُهِبت كتبٌ كثيرة من المكتبات الكبرى ومن الوقف وباعوها بأبخَس الأثمان.

استنفر ابن تيميّة الناسَ، وراح يُلقي المواعظ والدروس لاستنهاض هِمَمهم وتحريضهم على قتال من استباح حُرُماتهم وجهاده بالنفس والمال، ويدعوهم للذَّود عن البلاد والعباد، وكان في كل ذلك يتنقَّل من حيٍّ إلى آخر، ومن قرية لأخرى، ومن مدينة لثانية، وهو في كل ذلك يُثبِّت الناس ويقول لهم: إنكم في هذه الكَرَّة منصورون، فيقول له الأمراء: قل: إن شاء الله، فيقول: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً، ويقول: نحن مظلومون والمظلوم منصور ومَن بُغيَ عليه لينصرنَّه الله، ولذلك فإن النَّصر مؤكَّد، والفتح قريب، وإنَّ وعدَ الله كان مفعولاً.

والتَحَمَ الفريقان وثبَتَ السلطان ومعه المسلمون ثباتاً عظيماً، وأنزل الله نصرَه على المؤمنين بهزيمة التَّتار.

ذلك لأن للباطل جولة لكن للحقّ دولة، وذلك لأن الزَّبَد يذهب جفاءً ويبقى ما ينفع الناس يمكث في الأرض.

تعرَّض الشيخ ابن تيميّة للشدائد والمحن مراراً في حياته، حَسَدَه الحاسدون، ونالَ منه المغرِضون وسُجِنَ مراراً، وكانت وفاتُه سجيناً في قلعة دمشق سنة ثمان وعشرين وسبعمائة.

قال أخوه زين الدين عبد الرحمن: إنه قرأ هو والشيخ منذ دَخَل القلعة ثمانين ختمة، وشَرَعَا في الحادية والثمانين، فانتهينا فيها إلى آخر "اقتربت الساعة": ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر:54-55]، وجاءَ الشيخَ أجلُه...، فنعَاه مؤذِّن القلعة على المنارة، فما أصبَحَ الناس إلا وقد تسامعوا بهذا الخطب، فبادروا إلى الاجتماع حول القلعة، وضجُّوا بالبكاء والثَّناء والدُّعاء والتَّرحُّم، ثم ساروا به بعد غسله إلى الجامع الأمويّ، والخلائق بين يدي الجنازة وخَلفها وعن يمينها وشمالها ما لا يحصي عدَّتهم إلا الله تعالى، وساروا به حتى دُفِنَ بمقبرة الصوفية -ومقبرة الصوفية اندرست اليوم ولم يبقَ منها إلا ثلاثة قبور واحد منها قبر شيخ الإسلام ابن تيميّة تقع خلف مشفى دار التوليد التابعة لجامعة دمشق-.

رَحِم الله شَيْخ الإِسْلاَمِ أحمد بن تيميّة وأجزَلَ مثوبته، وجعَلَنا وذريَّاتنا على نَهجِه وطريقته، وأكرمَنا بهذه الأربعة: (العلم والعبادة والخُلُق والجهاد في سبيل الله).

والحمد لله رب العالمين